


(٩)
سورة التوبة
مدنية

وتنتهى خواطرنا عن سورة الأنفال لتبدأ خواطرنا عن سورة أخرى هى سورة التوبة، ومن عادتنا عند انتهاء سورة وابتداء سورة، أن تبدأ السورة الجديدة بـ «بسم الله الرحمن الرحمن». ولكن سورة التوبة هى السورة الوحيدة التى بدأت بدون البسملة، ووقف العلماء ليحاولوا العلم بسر عدم البدء بالبسملة، وقد اختلفت آراؤهم، ولحظ كل عالم ملحظاً، فمن قائل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد بداية السور ولم يحدد بداية هذه السورة.

ونقول: لا؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدد مكان الآية فى كل سورة، وقيل إن باقى سور القرآن الكريم وعددها مائة وثلاث عشرة بدأت بالبسملة.

ولم تبدأ سورة التوبة بالبسملة حتى نعرف أن الأمر ليس رتابة انتهاء سورة وابتداء أخرى، بحيث تجيء «بسم الله الرحمن الرحيم» مع بداية كل سورة، ولكن أسماء السور توقيفية، أى أن سيدنا جبريل عليه السلام هو الذى يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما فى القرآن الكريم، ونعلم أن رسول الله كان يراجع القرآن كله مع جبريل فى كل رمضان، وراجعه فى عامه الأخير مرتين مع جبريل، وكل ما جاء بالقرآن الكريم توقيفى كما أبلغه الوحى للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن عظمة الشرع أن ينتقل بالمؤمن من شيء إلى شيء، ليجد فجوة يتوقف العقل عندها، وهنا يأتى دور الإيمان ليمنع العقل من التوقف عند أى فجوة؛ لأن المشرع وهو الله سبحانه وتعالى يريد ذلك، ولو جاءت الآيات على رتابة واحدة لما انتبه الإنسان إلى قيم الإيمان.

على سبيل المثال نحن فى الحج نُقبّل حجرا ونرجم حجراً ، وجاء هذا كأمر من الله سبحانه وتعالى بأن هذا حجر يُقدس وذاك حجر يُرجم ويداس ؛ لنعلم أنه لا شيء فى هذا الكون مقدس لذاته ، ولكن التقديس لأمر الله وبتوجيه منه سبحانه وتعالى ؛ إن قال : قبّلوا ، قبلنا ، وإن قال : ارجموا ، رجمناه .

وفى الجيش مثلاً عندما يأتى الضابط ويقول للجنود : قف ، فيقف الجنود ، حتى الذى وضع لقمة فى فمه يتوقف عن مضغها . والحكمة من ذلك هى الانضباط ، والانضباط الإيمانى أكبر ؛ لذلك إذا صادف المؤمن أشياء فى منهج الله يقف فيها العقل يقول : هذه إرادة الله وسأنفذها لأن الحق تبارك وتعالى أمر بها .

والمثال لنا هو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ؛ حينما أُخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أُسْرِى به إلى بيت المقدس ، وعُرج به إلى السماء: لم يقس المسألة بعقله ولكنه قال : أوَ قَال ذلك ؟ قالوا نعم ؛ قال : فأنا أشهد إن قال ذلك لقد صدق. قالوا فتصدقه فى أن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه ، بخبر السماء ؛ قال أبو سلمة : فبها سُمّى أبو بكر الصدّيق .

ومن العلماء من قال: إن سورة الأنفال كانت عهوداً ، وسورة براءة هى نقض لهذه العهود ، ونقض العهد يأتى بعد العهد ذاته . فجاءت سورة التوبة مكملة لسورة الأنفال ، ولذلك نجد فى سورة الأنفال أن الحق سبحانه وتعالى قال مشرعا لتوزيع أموال الغنائم : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ٤١]

وجاءت سورة التوبة لتفصل كيف يتم التوزيع لأموال الصدقات فقال الله جل جلاله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : ٦٠]

إذن فكان من الطبيعى أن تأتى سورة التوبة بعد سورة الأنفال ؛ لأن سورة التوبة متممة لسورة الأنفال . وسورة التوبة تتعرض للقطيعة ، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .. ۝١ ﴾ [التوبة]

وهذه البداية لا تتناسب مع قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ ﴾

لأن « بسم الله الرحمن الرحيم » أمان وهذه براءة ، وقيل فى عدم تسميتها سورة براءة وتسميتها سورة التوبة لأن القطعية هنا بين الله وبعض عباده الذين ضلوا واختاروا الكفر والنفاق ؛ ولأنه رب رحيم أراد أن يفتح لعباده الذين أبقوا باب الرجوع إليه بالتوبة ؛ فسميت السورة سورة « التوبة » وقد بدأت السورة بقوله تعالى : « براءة » واسمها التوبة حتى تسبق التوبة البراءة . ولذلك نجد فيها آيات التوبة فى قول الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ .. ۝١١٧ ﴾ [التوبة]

وفى آية أخرى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة]

وفى آية ثالثة : ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ .. ۝١٥ ﴾ [التوبة]

إذن فعلى الرغم من أن السورة بدأت بالبراءة إلا أنها جاءت بالتوبة رحمة منه ؛ وقبولها منه تعالى رحمة بالناس .

فالله يَشْرع التوبة ويفتح بابها فضلا منه ورحمة ، فلو لم يشرعها الله ما قبلت توبة أبداً ؛ ولو عن معصية واحدة . والذى ييأس من التوبة وغفران الذنوب يشتد فى المعاصى وينغمس فيها ويحدث نفسه بأنّه ما دامت معصية واحدة سوف تدخله النار ، فلا فرق بين معصية وألف . ولا بد - إذن - أن يرتكب كل يوم جريمة ؛ لأن ذنبا واحداً أخرجه من الرحمة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يفتح باب التوبة ليمنع شراسة الإجرام فى المجتمع ، فكل عاص يمكنه أن يعود بالتوبة إلى الإيمان ، ويعيش المجتمع فى أمان وسلام . وهكذا كان تشريع التوبة رحمة ، وقبولها من الله رحمة . ولذلك بعض

الناس يقول : إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة]

ونتساءل كيف تاب الله عليهم ليتوبوا؟ نقول : تاب عليهم أى شرع لهم التوبة، فإن تابوا قبل الله توبتهم.

إذن فالمسألة تشريع وقبول. ومادام الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة فهو تواب. إذن فقد قدم الحق هنا للإنسان أسلوبين يصحح بهما مساره، قد شرع التوبة، وأذن بقبولها. ومن عظمته لم يقل عن نفسه إنه تائب ولكنه تواب. فإذا فعل الإنسان معصية وتاب، قبل الله توبته، وإن غلبه الشيطان أو غلبته نفسه وارتكب معصية أخرى وتاب قبل الله توبته أيضا لأنه تواب رحيم.

وأخذت سورة التوبة حيزا مع المشركين وحيزاً مع اليهود والنصارى، وحيزا مع المنافقين، وكما حددت المؤمنين فى آخر السورة، حددت أيضا مواقف كل من هؤلاء، وقد كان بيان موقف هؤلاء ضروريا؛ لأن المنافق مثلا متعارض الملكات، والكافر منسجم الملكات، فالمنافق ينطق لسانه عكس ما فى قلبه، والكافر إنما ينطق بما فى قلبه، ولكن المنافق والكافر يتفقان فى عداوة المؤمن. ولذلك فضح الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأعداء وأظهر ما فى أعماق الكافرين والمنافقين وخصومتهم للإسلام، وحاز المنافقون قسطاً وافراً من السورة لأنهم ادعوا الإيمان واقتربوا من المسلمين، وخصومة القريب أشد على النفس، فما بالنا بخصومة الإنسان مع نفسه ؟!

هكذا كان حال المنافقين الذين عاشوا بين المسلمين وملكاتهم متعارضة وخصومتهم للمؤمنين أشد؛ لأنهم يتظاهرون بالإيمان، ويضمرون الكفر. ولذلك كانت معظم آيات هذه السورة تفضح حال المنافقين وتظهر ما أضمروه من بغض وعداوة لأنهم أشد خطراً على الدين من الكفار.

والله سبحانه وتعالى يعطينا فى هذه السورة صورة لتمرد نوع من خلق الله من بنى الإنسان.

وهم هؤلاء الذين يكذبون بالله ونعمته ويضمرون الكفر والحقد ويتظاهرون بأنهم مع المسلمين علما بأنهم لم يتساووا مع الجمادات وسائر خلق الله من غير بنى الإنسان حتى الحيوان ، فإن هؤلاء جميعا يسبحون الله الخالق ويسجدون له؛ سجود إقرار بالربوبية ، أما المنافقون فهم من بنى الإنسان الذين تمردوا على الله خالقهم، ولذلك اقرأ إن شئت فى تصنيف الأجناس فى الكون : الجماد ، النبات ، الحيوان ، الإنسان ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ ﴾ [الحج : ١٨]

وهذه هى الجمادات ، ثم يأتى الخبر بالنسبة للنبات والحيوان فيقول الحق جلّ وعلا: ﴿ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ [الحج : ١٨]

ثم جاء الخبر فى الإنسان فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨]

أى أن الأمر فى التسبيح والطاعة والسجود لله انقسم عند الإنسان لأن له أغياراً .

ونجد رحمة الربوبية فى أنه ، كما جعل للمؤمن رزقه ، فقد جعل للكافر رزقه أيضا، وبيّن الله عز وجل أنه يرزق الكافر رغم أنه أراد بالسورة القطع بينه سبحانه وتعالى وبين الذين نقضوا العهود ، فإنه شاء أن يسمى السورة «سورة التوبة» ؛ ليفتح لهم باب التوبة فقد يتوبون ويرجعون إلى الإيمان .

وقبل أن نصنف ما جاء فى سورة التوبة لبيان الموقف من المشركين ، والموقف من أهل الكتاب ، والموقف من المنافقين ، يحسن بنا أن نفصل الكلام فى مسألة التسمية ـ البسملة ـ لأنها شغلت بال العلماء كثيراً .

ونعلم أن «بسم الله الرحمن الرحيم» وردت فى القرآن الكريم مائة وأربع عشرة مرة ؛ منها مائة وثلاث عشرة مرة فى بداية السور ، ومرة فى سياق آيات سورة النمل ؛ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) ﴾ [النمل]

وهى آية مجمع عليها، أنها آية من سورة فى القرآن الكريم، ولكن ماذا عن

البسملة فى أوائل سور القرآن الكريم ؟

اتفق العلماء على أنها آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن كان الخلاف بينهم حول: هل هى آية من كل سورة ؟ واتفق الجمهور على أنها آية قد نزلت للفصل والابتداء ، ولا يصح أن نقول : إنها للفصل فقط ، بل نقول : هى للفصل والابتداء، وهناك من يقول : إنها فى الفاتحة للابتداء ، أما الفصل فلا يوجد قبل الفاتحة سورة أخرى فى المصحف ، وعلى ذلك فهى للفصل بين الفاتحة وسورة البقرة . ولمثل هذا القائل نرد قائلين : إن المدقق فى علوم القرآن الكريم يعلم أن ترتيب المصحف غير ترتيب النزول ، فالمصحف له ترتيب ، والقرآن نزل منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفاتحة ــ على سبيل المثال ـ نزلت بعد سورة المدثر ، فهى فاصلة بين المدثر والفاتحة .

وحين نتصفح المصحف الشريف نجد أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية من الفاتحة، ولكنها ليست آية من كل سورة . ففى ترقيم آيات الفاتحة نجد ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الآية الأولى . ونجد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾هى الآية الثانية ، بينما فى باقى السور ، تجد أن الآية الأولى تبدأ بعد قوله تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وذلك لأن جمهور العلماء عَدَّ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آية فى سورة الفاتحة .

وجزى الله خيراً صاحب المعجم المفهرس الذى وضع معجماً لآيات القرآن الكريم بحيث إذا أحببت أن تعرف موقع آية فى المصحف تستطيع أن تحصل على موقعها بين الكلمات فى هذا المعجم ، إلا أنه من عجيب الأمر واستيلاء النقص على البشر ، شاء الحق تبارك وتعالى لهذا الرجل الطيب الباحث ، أن ينسى وضع ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى الإحصاء ، وجاء بكلمة الله فى ٩٨٠ آية بالرفع ، ٩٢ آية بالنصب ، ١١٥٢ آية جاءت فيها كلمة الله بالجر ، وتنقص آيات الجر ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾ .

وأنت حين تقرأ القرآن الكريم تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تقول من بعد ذلك : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ لأن القرآن قد بدأ مقروءا باسم الله ، وكذلك يبدأ

متلوا باسم الله ، وها نحن أولاء مع رسول الله حينما كـان فى غار حراء يتعبد ، وجاء له الوحى فقال له : ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق]

واقـرأ تتطلب أحـد أمـرين ؛ الأمـر الأول هـو أن يكون المتلقى لها قـد حفظ شيئـا فيقرأه .

والأمر الثـانى أن يكون أمام رسـول الله صلى الله عليه وسلم كتاب فيقـرأه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن عنـده محفوظ ، ولم يكن أمامه مكتوب . فضـلاً عن أنه صلى الله عليه وسلم كـان لا يعرف القـراءة والكتابة . ولهذا تسـاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء . وكان صلى الله عليـه وسلم منطقيا مع نفسه فى هذا الرد . وقال الملك جبريل ثانيا: اقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء .

أتعرفون لماذا كـان هذا التكرار ؟ كان ذلك فى فحواه ردا على شعوذة أثـارها خصوم الإسلام وأعداؤه بعـد مجىء رسالة الإسلام بـأربعة عشر قرنا ؛ حينما قـالوا : إن القرآن هو بعض من وسَـاوِس وأحاديث فى نفس محمـد . لكن ها نحن أولاء أمام الـرد . لقد جاء الملك جبريل ليقول لمحمد : «اقرأ» وها هو ذا رد محمد «ما أنا بقارىء» .

إننا إذن أمـام شخصيتين متميزتين ، شخصيـة آمرة جـازمة ، وشخصيـة متمنعة ، فلـو كـانت المسألة مسـألة حـديث نفس أو وسـوسـة ، لما كـان هناك سبب لـوجـود الشخصية الامـرة ، ووجود الشخصيـة الثانيـة الممتنعة ، وكل شخصيـة منسجمة مع صفاتها وقـدراتها ، فالشخصيـة التى تقول: «اقرأ» هى الآمـرة بالقـراءة . والشخصية التى تقول «ما أنـا بقارىء» هى شخصية تعرف الأسبـاب وقـدر الأسباب وتعـرف مواقعها من الأمية . إذن فهنا شخصيتان متميزتان لا شخصية واحدة .

وحين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما أنـا بقارىء» فهو منطقى مع نفسه ومع الـواقع . وحين يقـول الملك جبريل مبلغـا عن ربـه : ﴿اقرأ﴾ فهـو يُقْرِئُه بـاسم ربه، لا لأنه قارىء ولا لأنـه كاتب . كأنه يقول له : إنك يا محمـد ستقرأ باسم ربك لا باسم تعليمك . ويتتـابع الوحى : ﴿اقـرأ باسم ربك الـذى خلق . خلق الإنسان من علق﴾ فكما خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسـان بقـدرته من علـق ، هو قــادر على

أن يجعلك يا محمد تقرأ ، وإن لم تتعلم القراءة . وهذا ليس بالأمر العزيز أو الصعب على الخالق ، اقرأ باسم ربك ؛ لا باسم أنك قد تعلمت ، فربك هو الذى خلق الإنسان من علق ، وربك هو الأكرم ، الذى علم بالقلم وعلم الإنسان ما لم يعلم ، فأنت لن تقرأ مما تعلمته من البشر ، ولكنك تقرأ مما تعلمته من خالق البشر .

ونحن فى موقف مع رب الأسباب : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣]

والإنسان منا حين يتعلم القراءة والكتابة فهو يتعلمها من إنسان مثله ، وهى دليل على كرم الله تعالى لأنه نقلها من إنسان إلى إنسان ، ولكن حين تتعلم من غير ذلك فهذا هو الموقف الأكرم . إذن فهناك «كريم» وهناك «أكرم» كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لمحمد : أنت لا تقرأ باسم أنك تعلمت ولا باسم أنك حافظ ، وإنما تقرأ باسم ربك ، وإن لربك مطلق القدرة إذا أراد شيئا فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢]

إذن فقد قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن أولا باسم الله . ونحن نتلوه أيضا باسم الله . ولابد أن نأخذ «بسم الله» من زاويتين : الزاوية الأولى هى فيها نلحظه من لغة البشر ، فإذا ما تكلم إنسان فى أمر من الأمور ويريد إقناعك به وتأييدك له فأنت تقول له : باسم من تتكلم ؟ ..

فيقول لك : أنا أتكلم يا سيدى باسم السلطة . وقد تكون هذه السلطة هى النيابة أو الشرطة أو الضرائب . إذن جاء لك بالصفة التى يتكلم باسمها .

ونحن فى هذه الحياة المعاصرة نجد الحاكم مثلاً يفتتح خُطَبَه قائلا «باسم الشعب» ويكون ذلك هو مدخل الحاكم للحديث فى أى أمر .

والزاوية الثانية هى أنك حين تتكلم باسم الله فأنت تعرف أى قدرة مطلقة تقبل على العمل بها . فأنت تذهب إلى الأرض لتحرثها ، فتعطيك الزرع ، وأنت تعلم أنك لم تخلق الأرض ، ولا تعرف عدد العناصر التى فيها ، وأنت كذلك لم تخلق البذور التى تبذرها فى الأرض ، ولا أنت الذى ستنزل الماء من السماء لتروى الأرض . كل ما فى

الأمر أنك حرثت الأرض ، أى أنك أعملت فكرك المخلوق لله فى المادة المخلوقة لله بالطاقة المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

إذن فأنت حين تقبل على الزراعة تعرف حدود قدرتك وتعرف مطلق قدرة الله سبحانه وتعالى فتقول: «باسم الله» وهذا يعنى ضِمْناً أنك تقول : أنا لا أقدر على أن أزرع باسمى لأنى لم أخلق الأرض ، ولا أنزل المطر ، ولا أنا خالق البذور ، ولا قدرة لى لأرغم الأرض على أن تنبت الزرع بأنواعه المختلفة .

وعلى الإنسان أن يسأل نفسه عندما يقبل على أى عمل من الأعمال : ما هى قدرتى التى ترغم العمل على أن ينفعل ؟ لا توجد للإنسان أى قدرة ولكن هى قدرة التسخير التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى كل الكائنات التى تنتفع بها أيها الإنسان . لذلك فمن حسن الأدب مع الله أن تدخل على كل عمل قائلا : أنا لا قدرة لى عليك إلا باسم الله الذى سخرك لى وأمرك ألاَّ تخرج عن طاعتى.

وعلى سبيل المثال : هل يمكننا أن نؤثر فى حركة الشمس ويكون فى استطاعتنا أن نقول لها : أشرقى ؟ . نحن لا نتحكم فى الشمس ولا فى القمر ولا فى الهواء ولا فى النجوم . إذن . فمن حسن الأدب مع الله تعالى أن تدخل على كل ذلك باسم الذى سخر هذه الكائنات لخدمتك . وانظر دائما إلى من سخر لك جميع الكائنات لتكون فى طاعتك .

عليك أن تعرف أنك بلا قدرة على شىء ، وأنك لن تقدر على أى شىء إلا بقدرة الله تعالى وأنت إن أقدمت على أى عمل ، وليس فى بالك الله المسخِّر له ، واحتفظت فى بالك فقط بالنتيجة التى يحققها لك هذا العمل ، فاعلم أن هذا هو أول فارق بين المؤمن والكافر . فالكافر هو الذى يدخل على أى عمل وهو ناظر فقط إلى فائدته المجردة سواء أكانت زراعة أم صناعة أم طعاما أم شرابا . أما المؤمن فهو يعلن دائما الولاء لله سبحانه وتعالى وأنه لا يقوم إلا بالعمل الذى أباحه الله له . إنه يضع الله دائما فى قلبه وفى باله وذلك يكسبه فائدتين ، الأولى : هى الوصول والحصول على نتيجة هذا العمل ، مثله فى ذلك مثل الكافر ، والفائدة الثانية هى الثواب الذى يناله

المؤمن فى الآخرة . إنه يستفيد من عطاءين لا من عطاء واحد . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ (١)﴾ [سبأ]

والمؤمن ساعة يرى نتيجة عمله فى الدنيا لصالح نفسه فهو يقول : الحمد لله. وساعة يرى عطاء الله له فى اليوم الآخر من حسن الثواب فهو يقول أيضا : الحمد لله. الحمد لله أولا والحمد لله آخرا .

اذن فساعة تقول : ﴿باسم الله﴾ وأنت مقبل على أى عمل . فأنت تعترف أنك تدخل على العمل بلا حول منك ولا قوة ولا طوْل ، وإنما بيقين أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يسخر لك هذا العمل . ولو لم يسخر الله لك ما أمامك من كائنات لما انفعلت لك ، أو أعطت ثمرة .

وأنا لا أمل من ضرب هذا المثل من الأنعام ، تلك الأنعام التى يستأنسها الإنسان بإرادة التسخير التى خلقها الله تعالى ، فهناك بعض من الحيوانات التى لا نستطيع أن نستأنسها : نحن نستأنس الجمل ، وقد تستأنس الفيل ، ولكن لا يستطيع أحد منا أن يستأنس ثعبانا صغيرا أو ذئبا لأن الحق ترك هذه الكائنات منطلقة ولا يستطيع الإنسان أن يستأنسها ، حتى يعلم الإنسان أنه لا حول له ولا قوة ، وأنه لو لم يذلل الله له بعضا من الحيوانات ، لما استطاع أن يذلل أى شيء منها ، والدليل على هذا هو وجود حيوانات لا نستطيع أن نذللها ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

إذن فلو لم يذللها الله تبارك وتعالى لما استطعنا نحن تذليلها ، وترك الله بعضا من الوحوش غير مستأنسة ليخبرنا أننا لا نملك مطلق طاقة التذليل والتسخير، ولكنه سبحانه وتعالى هو الذى يخلق طاقة التسخير والتذليل فيما يشاء لمن يشاء . وهذا تنبيه واضح للإنسان حتى لا يضل وحتى لا يأخذه الغرور . فإذا أقبلت على أى عمل

باسم الله ، فكأنك دخلت على العمل باسم من سخر لك الكائنات لتنفعل معك .

وقد يقول قائل : ولكن الكائنات أيضا تنفعل للكافر الذى لا يقول : ﴿ باسم الله ﴾ . ونقول : إن الكافر لا يأخذ إلا نتيجة العمل فقط . أما المؤمن فهو يثاب على عملية استحضار الله فى باله مع الجزاء بنتيجة العمل ذاته .

وبعد ذلك يطلق الحق سبحانه وتعالى أشياء فى الكون ويفلتها من قانونها الذى وضعه لها ، فالسنن فى الكون موجودة ولكن الله يأمر هذه السنن أن تخرج على قوانينها . لماذا؟ . ليعلمنا سبحانه الفرق بينه - وهو الحق - وبين الخلق . إن الحق يطلق القانون ويقيده ويفلته كما يشاء ، والخلق يصممون القانون لعمل ما ، ولا يستطيع الشخص أن يتجاوز به حدود ما صنع له .

فسبحانه وتعالى قد وضع نواميس للكون ، ويخرق سبحانه هذه النواميس فى بعض الأحيان حتى يلفت نظر الناس إلى أنه القائم على هذا الكون . مثال ذلك أننا نجد المطر ينزل دائما فى مكان ما من الأرض ، وبعد ذلك يصيب هذا المكان الجفاف ، وهذا خروج عن الناموس . هو بذلك يلفتنا إلى أن الكون لا يخضع للناموس ، ولكنه خاضع لإرادة خالق الناموس . والحق سبحانه وتعالى يخرق الناموس ليلفتنا إلى مطلق قدرته . انه يلفتنا لنعرف أن ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لها مدلول فى الكون .

ومثال نراه فى حياتنا على خرق الناموس ، نحن نعلم أن التكاثر يحدث فى الإنسان من زواج رجل بامرأة ، ويريدان الإنجاب . لكن الحق سبحانه هو الذى يحدد عطاء النوع ذكرا أو أنثى أو لا يعطى حسب مشيئته : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴿٤٩﴾ **أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إن الرجل والمرأة موجودان ، ولكن الناموس لا يتصرف بمشيئته ، ولكنها إرادة خالق الناموس .

والحق سبحانه وتعالى يضرب أكثر من مثل على ذلك . ونعرف حكاية سيدنا زكريا

وكان يكفل مريم عليه وعليها السلام ، ويأتى لها بالطعام والشراب فدخل عليها مرة فوجد عندها لونا من الطعام لم يكن قد أتى به ، فقال لها تلك المقولة المشهورة التى تعلمنا كيف ندير أمور حياتنا بلا فساد أو سماح بفساد لأبنائنا وبناتنا ، قال لها :

﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

إنه يعلمنا الرقابة على من نكفلهم ، ففساد البيوت ينشأ من عدم الرقابة على الأولاد ، فالأم إن رأت قلم حبر فاخراً ـ على سبيل المثال ـ مع الابن ولم يحضره له أبوه ولم تسأله «من أين لك هذا ؟ » فهذا تستر على فساد فى الابن وقد يكبر فى الفساد من بعد ذلك . والأم إن رأت بعضا من الملابس التى لم تحضرها لابنتها ، والابنة ترتديها ؛ عليها أن تسأل وتدقق بأسلوب «أنَّى لكِ هذا ؟» حتى لا تنحرف الابنة، ولو أن الزوجة تنتبه إلى اسلوب تصرف زوجها و إنفاقه الذى قد يفوق مرتبه كثيرا وتسأله بحسم : «أنى لك هذا ؟» فهى تحمى زوجها وبيتها من المال الحرام .

إن مبدأ «أنى لك هذا ؟» لو سيطر على المناخ العام للمجتمع لامتنع الفساد من جذوره . وقد أطلق الحق هذا التساؤل على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لمريم بعد أن كفلها : ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧]

هنا قالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران : ٣٧]

إذن واجه سيدنا زكريا خرقا سماويا للناموس.

وكان زكريا عليه السلام يريد لنفسه أن يدخل ضمن دائرة: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فدعا ربه أن يرزقه غلاما رغم أنه قد بلغ من الكبر عتيا، وأن زوجه عاقر، ما دام الحق يرزق من يشاء بغير حساب فليدع الله :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣٨]

وجاءت البشارة من الله تعالى بيحيى ، وتحقق لزكريا ما آمن به من أن الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب . ولنا أن ننتبه إلى أن هذه المسألة جرت بين يدى

سيدتنا مريم ، ذلك أن مريم ستتعرض لمحنة لم تتعرض لها امرأة فى العالم ، فأراد الله عز وجل أن يؤنس بشريتها حتى لا تتزلزل أفكارها ويعلمها أن تقول : ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ وفى ذلك إيناس لمريم لما سيجرى عليها من خروج على الناموس فتلد من غير ذكر . لقد عرفت أن الحق يرزق من يشاء بغير قانون ، ورأت أمامها تجربة زكريا عليه السلام عندما أعطاه الله الولد بعد أن جاء على لسان زكريا :

﴿ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم : ٨]

ورأت مريم أن ذلك على الله هين :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم : ٩]

وعندما يأتى لها الملك متمثلا فى هيئة البشر ليبشرها بغلام ، تقول :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٠]

يقول الملك : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ [مريم : ٢١]

وتلد مريم الولد ، وهكذا خرق الله بقدرته الناموس .

ونتذكر أن الحق سبحانه وتعالى حين كرر الاصطفاء لمريم فى القرآن الكريم كرره لحكمة : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

فالاصطفاء الأول هو اصطفاء قيمى تدخل به فى دائرة المُصْطَفَيْن الأخيار، والاصطفاء الثانى لمريم عندما ولدت دون أن يمسها بشر؛ لذلك كان اصطفاؤها على نساء العالمين ، فكل امرأة تلد بوساطة رجل ، أما مريم فقد اصطفاها الله عز وجل لتلد دون رجل . ولهذا حدد الله أشخاص هذه القصة؛ لأن امرأة أخرى لن يحدث لها مثل ذلك ، ولكن بعض قصص القرآن الكريم لا يأتى فيها تحديد لأشخاص مثال ذلك قصة أهل الكهف . ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣]

لم يحدد الحق سبحـانه وتعـالى أسماءهم أو عـددهم، وذلك لأن عـدد أهل الكهف ليس له قيمـة فى مغزى القصة ، وكـذلك لم يحدد البلد الـذى كانوا فيـه أو العصر الذى عاشوا فيه . ولم يأت الحق عزوجل هنـا بتخصيص وتحديد أسماء أهل الكهف ؛ لأنه لو فعل لقال قـائل : هذه خصوصيـة لهذه الأسماء فلا تتكرر فى الدنيـا، لكن عندما تـركها الحق هنا دون تشخيص ولا تحديـد للعدد ولا لزمـان هؤلاء الفتية ،فهذا معنـاه أن هؤلاء الفتيـة أرادهم الله مثـلا فى الكـون ، يتأتـى من أى فتيـة بأى أسماء فى أى زمـان وفى أى مكـان ، فالإبهام هنـا فيـه مزيـة لفـائدة القصة . لكن حين يـريـد الله عزوجل تحديـد أشخاص تجده على سبيل المثـال يقول : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

لقـد حـدد الله تعالى زوجتين لاثنين من أنبيـائه ، وكل منهما استقلت بعقيـدتها ومـا استطاع نبى أن يهديها ، وأيضا امرأة فرعون آمنت رغـم أن فرعون ادعى الألوهية ولكنه لم يستطع أن يقنع امرأتـه بالإيمان به . يقول المولى سبحـانه وتعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

إذن هى امرأة مؤمنة لها عقيدتها المستقلة ، لكن حينما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم جاء بـالتحديـد والتشخيص ، فلم يذكـر اسمها فقط ،بل ذكـر اسم أبيها أيضـا فقال: مريم ابنة عمـران. ويأتى القرآن الكريم لقصة ذى القرنين ، وعندمـا سألوا عن اسمه لم يـذكر اســمه ، بل قـال فى بيان أوصـافه : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف]

لقد أراد الله سبحانه وتعالى هـذا الإبهام ، و إن سألك أحد: من هو ذو القرنين؟ فلك أن تجيب أتريـد أن تفسد على القرآن مراده ؟ إن المراد من القصـة القرآنية هو مـاجاء فى القـرآن ، وأراد الحق أن يظل اسمه مبهما ، إنـه رجل مُمكن لـه فى الأرض، آتاه الله تمكيـ

وأحاط نفسه بالطيبين ، وأبعد عنه أهل السوء ووفقه لإعانة الضعفاء ، وهذا المثل لابد أن يظل مع الناس طوال الزمن ، ونقول : الحق سبحانه وتعالى حين يبدأ قرآنه بقوله :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

فعليك أن تبدأ قراءة القرآن الكريم بها وأن تتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[١]

لأن كل عمل يبدأ بغير اسم الله هو عمل ناقص ، حتى لا يصادفك الغرور والطغيان وتتخيل أنك أنت الذى تسخر المسائل لتنفعل لك ، وهكذا تفتقد التصور الحق لقدراتك ، وأنت ساعة لاتذكر اسم الله تعالى فى بدء العمل فمعنى هذا أن الله ليس فى بالك ، ولا يكون لك على هذا العمل جزاء فى الآخرة ، وقد تأخذ عطاء العمل فى الدنيا ، ولكنه حجب عنك ومنعك عطاء الآخرة . أما الذى يريد عطاء الآخرة فعليه أن يقول دائما : «بسم الله الرحمن الرحيم» فى بدء كل عمل ذى بال يقوم به . وذلك يبقى كل عمل بعطائه فى الدنيا وحسن الجزاء عنه فى الآخرة.

يتزوج المرء باسم الله وينكح باسم الله ، وما دمت تدخل عليها باسم الله فأنت إذن تستطيع أن تميز الحلال عن الحرام ، ولن تبدأ أى عمل باسم الله إلا فيما أباحه الله عز وجل ، فالإنسان لا يمكن أن يسرق أو يقبل الرشوة باسم الله .

وحين تبدأ العمل الحلال باسم الله فأنت تعرف أن الحق معبود ، وله أوامر بـ «افعل» وله نواه بـ «لا تفعل» وإياك أن تستحى إن كنت عاصيا أن تستفتح أعمالك باسم الله، لأن الله لا يحقد على خلقه ولا يتغير على خلقه ولا ينفض يده من أمور خلقه، فإن كنت قد عصيت الله فى شىء فأقبل على عملك باسم الله لأنه رحمن ولأنه رحيم . فهو سبحانه وتعالى حين شرع عقوبة على معصية من المعاصى ، فمعنى ذلك أنه أذن بأن تقع تلك المعصية . فإن كنت قد عصيت الله وتخجل من أن تبدأ عملك «بسم الله الرحمن الرحيم» فتذكر أن الحق تبارك وتعالى «رحمن» و«رحيم» ونعرف أن الاشتقاق

(١) السيوطى فى الجامع الصغير، وابن كثير فى تفسيره بلفظ «فهو أجذم» .

فى «رحمن» و«رحيم» من الرحم ،والرحم هو مكان الجنين فى بطن أمه ، وهو منتهى الحنان. ولذلك جاء فى الحديث القدسى عن صلة الرحم : وفيه يقول الله عز وجل :

(أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمى

فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1]

(حديث قدسى)

إذن فكلمة «الرحمن» وكلمة «الرحيم» مأخوذتان من الرحم، والحق حنَّان على عباده، وعطوف عليهم ، ولذلك فالعاصى لا يصح أن يستحى أن يهتف ﴿باسم الله﴾ وأن يقول فى بداية أى عمل يشرع فيه: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إنه بذلك يمنع عن نفسه الغرور بأنه قدر بذاته ، بل إنه قدر على الأمر بالتسخير منه سبحانه وتعالى ولا يحرم نفسه الثواب عليه فى الآخرة ، وحين يقول المؤمن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو يدخل فى حماية الله ، و إذا قيل «رحمن» فهى مبالغة ، و إذا قيل «رحيم» فهى مبالغة .

لكن إياكم أن تفهموا أن صفات الله عز وجل تتأرجح بين القوة والضعف ، فمرة يكون راحما ومرة يكون رحمانا ومرة يكون رحيما، لا ، لأن صيغ المبالغة إنما تأتى فى الأغيار ، ويقال : فلان عالم وفلان علاَّم أى أكثر علماً من العالم ، وفلان علاَّمة أى أكثر علما من العلاَّم ، فالصفات فى البشر تتغاير، لكن عند الحق سبحانه وتعالى لا تضعف صفة وتقوى أخرى . وإنما متعلقات الصفة هى التى تكثر أو تقل . فأنت تقول : فلان آكل ، وفلان أكَّال وفلان أكُول . والأكُول لا يأكلُ رغيفاً واحدا على سبيل المثال مثل الآكل ، لكنه قد يأكل خمسة أرغفة فى المرة الواحدة ، والأكَّال قد يأكل خمس مرات بدلا من ثلاث ، فالمبالغة تأتى مرة فى الحدث وهو هنا الأكل ، ومرة تكون المبالغة فى الفعل.

أقول ذلك حتى نعرف أن الصفات فى البشر ـ وهم أحداث ـ تتغاير ، أما بالنسبة للحق سبحانه وتعالى فهو لا يتغير ولا تتغير صفاته ، بل تضعف متعلقات الصفات

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى .

أو تكثر، فهو رحمن لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا . لذلك فرحمته واسعة ، وهو رحيم فى الآخرة لأنه يرحم المؤمنين فى الآخرة . فالله لا يتغير من أجلنا ولكن نحن الذين نتغير ويجب أن نتغير من أجل الله تعالى . لو كان الحق سبحانه يتغير لخسف الأرض بالعبد الذى فيعصيه وهو ستار، يعصيه العاصى ويستره ، وهو حليم لا يتغير.

وحين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن الكريم بقول :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

فلنعرف أن ذلك مطلوب منا فى قراءة القرآن الكريم وفى أى عمل آخر نقوم به ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا كل شىء ، ولولا تسخيره لما استطاع أحد منا أن يفعل شيئا ، ولأن الله يريد ألا يكون عمل الواحد بلا ثواب حتى إتيان الزوجة وأنت تنوى إعفاف نفسك وإعفافها أو تنوى الذرية الصالحة فلتبدأ ذلك باسم الله تعالى ، وبذلك يكون لك الثواب .

يقول صلى الله عليه وسلم ضمن حديث له : وفى بضع أحدكم صدقة . وقد قالوا له : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له فيها أجر»(١)

ولذلك كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله هو أبتر، ومعنى ذى بال أى عمل يقدم عليه الإنسان بفكر، لكن الأعمال التى تمر على الخاطر فقد ينسى الإنسان أن يبدأها باسم الله فهى مغفورة له لأن الإنسان منا له ثلاث نسب فى كل موقف : نسبة ذهنية ؛ نسبة كلامية ، ونسبة خارجية . مثال ذلك إن عطش الإنسان فإن النسبة الذهنية التى تجىء إلى الذهن «إننى أريد كوب ماء» وهنا يقول الإنسان : «أعطنى كوب ماء» وهذه النسبة كلامية ، وعندما تأتى بكوب الماء إلى العطشان فهذه نسبة خارجية .

والنسبة الخارجية إنما تنشأ من النسبتين الأوليين ، وكل أمر يحدث منك بنسبة خارجية أو نسبة كلامية ولم يخطر على بالك بنسبة ذهنية فهو أمر غير ذى بال .

(١) رواه الإمام مسلم .

وهَبْ أن المصباح الكهربائى الذى ينير لك ليلا انكسر فجأة ، فقلت: "ياستار" ولم تقل ﴿باسم الله﴾ وابتعدت عن مكان الخطر ، هذا العمل لم تكن له نسبة ذهنية ؛لذلك فهو أمر غير ذى بال ، أما الأمر ذو البال فإنك تأخذ عليه عطاء الدنيا وتأخذ عليه الأجر والثواب فى الآخرة إذا قلت: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وبعضنا يلحظ أن الكافر يقبل على الأرض ويحرثها وتعطى له ويأخذ المحصول لكنه لا يأخذ الثواب مع المحصول ،ولذلك يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن نبدأ قراءة القرآن بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم"﴾ .

و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هى التى ابتدئت بها سورة فاتحة الكتاب وابتدئت بها كل سورة من سور القرآن الكريم إلا السورة التى نحن بصدد خواطرنا عنها وهى سورة التوبة .

ونجد فى التسمية ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ "ثلاثة أسماء لله : الله والرحمن والرحيم" و"الله "علم على الذات وهو واجب الوجود بكل صفات الكمال فيه . و"الرحمن" تبين مجالا لأفعال الله وصفاته . و"الرحيم" تبين مجال عطائه لنا فى الآخرة . وبما أننا لا نملك سيطرة على أى جنس من أجناس الكون إلا بأن يسخره الله تعالى لنا ليخدمنا ؛ إذن فمن الطبعى أن تقبل أيها الإنسان على التفاعل مع أى شىء فى الكون ، وأن تبتدىء ذلك باسم الذى سخر لك هذا الشىء ؛ لأنك لا تدخل على الأشياء بقدرتك ، فليس لك قدرة إلا فى حدود ما منحه الله لك ، ولا تدخل على أى شىء بعلمك ؛ لأنه لا علم لك إلا ما علمك الله . وعليك أن تتذكر هبه الله لك وأن تقول : "إننى أقبلت يارب على هذا الفعل لا بقوتى ولا باقتدارى ولكن باسمك أنت سبحانك أنت الذى سخرته لى" وحين يقبل الإنسان على أى عمل باسم الله ، فالله يعطيه خير ذلك العمل ويبارك له فيه

صحيح أن الأشياء تنفعل أيضا للكافر حين يُقبل عليها دون أن ينطق ويقول: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكم ربوبيته لكل الخلق .. مؤمنهم وكافرهم ، وهو الذى استدعى الخلق الى الكون ؛ لذلك جعل الكون يعطى المؤمن والكافر، وقولك أيها المؤمن فى بدء أى عمل : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يعتبر حركة عبودية لك فتذكر نعمة الله لك فى التسخير، وهى إن لم تزدك عن الكافر شيئا فى

انفعـال الأشياء لك ، فهـى قد ضمنت لك ثـواب تـذكـرك لنعمة الله تعـالى ولا ينقطع عطاؤها فى اليوم الذى يبقى فيه العطاء وهو يوم الحساب .

وإذا نظرنـا إلى اسم الله فى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وجدنـا أن «الله» هو اسم علم على واجب الوجود وله صفـات كثيرة ، هذه الصفات أصبحت فى مجال الأسماء الحسنى لله : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ **[الأعراف : ١٨٠]**

ولنـوضح ذلك : أنت فى حيـاتك اليوميـة قـد تلتقى بإنسـان حليم ذى أناة ووقـار، فتصفه بأنه حليم ، وتقابل إنسانا له ثـراء فتقول : فلان غنى ، وتلتقى بإنسان له حكمة فتقول : فلان حكيم ، وأنت تلحظ أنه لابد من وجـود موصوف لتصفه ، أما حين نطلق الحكمـة والغنى والحلم فهى لا تنصرف على إطـلاقهـا إلا لله. فإن قلت: «الحكيـم» على إطلاقـه و«الرحيم» على إطـلاقه و«الغنى» على إطـلاقه فهى كلهـا تنصرف إلى الحق عز وجل . وكـذلك الـرحمة على إطـلاقهـا تنصرف إلى الله تعـالى : فـالـرحمة فى كل راحـم فى الأرض هى بعض هبـات الـرحمة الهابطـة من الله تعـالى إلى الخلق . وتتسـامى الـرحمة فى الرحماء فى الدنيا إلى أن تتصل بالرحيم الأعلى سبحانه وتعالى .

إذن فهو سبحانه وتعالى ينبـوع الرحمة . وإذا أطلقت كلمة «الرحيم» انصرفت لله تعالى ، أما إذا كنت تصف بها إنسـانا فهى محدودة ونسبية . هذا بـالنسبة لأسماء الله التى هى صفاته ، أمـا اسم «الله» فهو لا يعطى صفة وإنما يعطى ذاتا موصـوفة بصفات الكمال . ومادام علما على واجب الـوجود ، فـلا يطلق على غيره . ومن قدرة الله تعـالى أن أحدا لا يجرؤ أن يسمى نفسه أو أحـد أبنائه باسم «الله» إنما ظل هـذا الاسم الكريم من قبل ومن بعد الإسلام علماً على واجب الوجود وهو الحق الأعلى .

إننا نجـد الناس تطلق على ذريتهم أسماء، منهم من يسمى ابنـه «محمدا» ولا يسمى ابنه التـالى بنفس الاسم ، فكلمة «محمد» أصبحت مشخصة لـلابن الأول ، لكن بعضا من أهل الـريف من يحب التفـاؤل بـاسم «محـمـد» لأنه اسم رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ؛ فيسمى ابنـه الأكبر «محمد الكبير» ويسمى ابنـه التـالى «محمد الصغير» ويتمايـز الأبناء أصحاب الاسم الواحد بأوصاف أخرى مثل: «محمد الطيب» و«محمد الطاهر» .

إذن فإطلاق الأسماء على المسميات أمر شائع فى دنيا الناس وليس بعجيب . لكن الله حين اختار لنفسه اسما هو علم عليه وحده وهو «الله» وهو الدال على صفات الكمال فيه سبحانه وتعالى . لم يجرؤ أحد الكافرين أن يسمى تابعا له بهذا الاسم . ورغم أن الكفار معارضون ومعاندون لكلمة الإيمان ، إلا أن أحدا منهم لم يجرؤ أن يقول : «مادام الله قد سمى نفسه بهذا الاسم فأنا سأسمى هذا الشىء «الله» . ولهذا قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

ويهيج الحق جل وعلا فى الكافرين غريزة التحدى ، حتى لا يقال :لم تُهَجْ ولم يطرأ هذا الأمر على بالنا ، وجعلها الحق واضحة أمامهم وعلى بالهم وقال سبحانه:

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

فلو كان الكافرون مؤمنين بكفرهم لجاء واحد منهم وقال :

ـ سأسمى ابنى «الله» .

لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يدخل نفسه فى التجربة ، مما يدل على أن أى كافر بالله أو مشرك به إنما يعبد وهما ، لا يقينا ، ذلك أنه لو كان مؤمنا بما يعبد من غير الله لأطلق هذا الاسم على أى مخلوق ولعاش فى حماية من عبده ، ولكن أحدا من الكافرين لم يجرؤ على ذلك قبل نزول القرآن أو بعده ؛ لأن الناس لم يتجهوا إلى هذا اللون من الفكر ، فها هو ذا القرآن الكريم قد نزل وواجههم بالتحدى :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم : ٦٥]

إن هذا يدل على أن الذين يعبدون شيئا غير الله لا يثقون فى ذلك الشىء أبدا ولو كانوا واثقين فيه بحاله لقالوا : نحن نقولها ونسمى الأشخاص أو الأشياء بها ونحن مطمئنون إلى أن هذا الذى نعبده يحمينا ، ولكن أحدا منهم لم يفعل ذلك .

ومن بعد ذلك يأتى فى «بسم الله الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله تعالى هما «الرحمن» و«الرحيم» وأنت حين تبدأ عملا «بسم الله» فأنت تؤمن يقينا أنك تبدأ باسم

من يعينك على فعلك ، فإن كنت تريد عملا يحتاج إلى قوة . فأنت تقول : «باسم القوى» حتى يمدك الحق بأسرار صفة القوى ، وإن كنت تريد علماً ؛ فأنت تقول: «باسم العليم» ومن يريد الحكمة عليه أن يقول: «باسم الحكيم» . ومن يريد أن يعينه الله على قهر عدوله ، عليه أن يقول «باسم القهار» . وأنت حر فى أن تبدأ عملك بأى اسم من أسماء الله لتقبل على حركتك فى هذه الدنيا لتنفعل لك ، ولكن الأفعال لاتقتصر على مسيل صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة فى كل فعل ، فأى فعل مهما بدا تافهاً فى حدود تصورك أنت ، يحتاج إلى صفات متعددة ؛ يحتاج إلى القدرة وإلى الحكمة وإلى الأناة والحلم وإلى غيرها من الصفات .

وحتى لا يثقل الله عليك لتكرر الصفات التى تعينك فى مجالات العمل المختلفة ، فقد علمنا المولى سبحانه وتعالى الاسم الذى يجمع كل المجالات ، إنه «الله» فإذا قلت: «باسم الله» فكأنك قلت «باسم القوى» و«باسم العليم» و«باسم الحكيم» و«باسم الرحيم» و«باسم المهيمن» و«باسم القادر» و«باسم القاهر» ، كأنك ابتدأت وسمّيت بكل أسماء الله الحسنى ؛ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نبتدىء كل عمل لنا ذى بال بقولنا : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فيجب أن نستثمر هذا الأمر ونزيده بأن نستدرك ما فات من نعمة البدء بالتسمية وباسم الله على كل عمل لم نبدأه بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وهذا اسمه : «بسم الله «قضاء ، فأنت بذلك تقضى ما عليك مما فاتك من بدء أعمالك السابقة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وتضيف أيضا : وبسم الله عن كل عامل نسى أن يقول عند بدء عمله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فتكون قد أديت عن نفسك فى الحال وأديت عن نفسك فى الماضى ، وحملت عن أخيك الساهى عن التسمية ، وهنا يعطيك الله شحنه البركة فى كل ما تأتيه مضاعفاً بنيتك فيه .

ولذلك نحن نسمع بعض الأئمة حين ينوى الصلاة يسرّ بالتسمية وبعد ذلك يقرأ الفاتحة جهراً ابتداءً بقول الحق:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والعالم من هؤلاء يبدأ الصلاة بالتسمية سرا ، لأن الصلاة عمل ذو بال وكل شيء ذي بال يجب أن يبدأه المؤمن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ . وذكر في الحديث القدسي :

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله عز وجل : حمدني عبدي، فإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : أثنى على عبدي ، فإذا قال: ﴿ مالك يوم الدين﴾ قال الله ـ عز وجل ـ مجدني عبدي ، فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله ـ عز وجل ـ : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1]

ونلحظ أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هي آية من آيات الفاتحة :

فكأن الحق سبحانه وتعالى حين بدأ القرآن بالفاتحة ، وبدأ الفاتحة .

بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) ﴾

بدأ بها لنتعلم أن نبدأ بها أي عمل ، وكل عمل هو إلى غاية ونتيجة .

وعلى ذلك فحين بدأ الحق تبارك وتعالى حديثه القدسي بحمد العبد لله ، فهذا يدل على أن فاتحة الكتاب شيء ، والتسمية الاستهلالية شيء آخر . إذن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من القرآن ولكنها ليست من نص السورة، لأن الحق سبحانه وتعالى عندما فصّل الحديث القدسي ، لم يأت بها ،ولذلك قال العلماء : إن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ليست من نص كل سورة في القرآن الكريم ولذلك يسمي الإمام بها في بعض الأحيان سراً .

ولنا أن نتذكر أن الحقّ سبحانه وتعالى اختص خلقه برحمته وأراد أن يرفع الحياء عن

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

العاصى لله ، فللعاصى لله حين يقبل على العمـل أن يستعين بسم الله ، ولا يقولن واحد لنفسه خجلاً .. «أأستعين بمن عصيته وأغضبته » . لا يقـولن إنسان لنفسه هذا ، فالحق سبحـانـه وتعـالى رحمن ورحيم ، لذلـك لا يصح أن تمنعك معصيتك لله أن تستهل كل عمل باسمـه سبحانه وتعالى ، فقـد جاء سبحانـه بالحيثية لنا جميعـا ، إنه رحمن ورحيم، ولولا رحمانيته ورحمته لما بقيت لنا الدنيا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

إذن فنحن نعيش على رغم معاصينا فى مجالات جـلالات الرحمن وجلالات الرحيم ، وعلينا أن ندقق النظر فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

والحق أيضا يقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

والآيتان تتشابهان فى الصدر ، وتختلفان فى العجز ؛ لأن الآية الأولى جاءت فى سياق وتجليات الرحمة، وأمـا الآية الثانية فقـد جاءت فى سياق جبروت العاصى الـذى يأخذ نعمة الله ويستغلها فى معصيته .

فقد جاء قبلها قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

[إبراهيم : ٢٨]

وهذا القول مناسب لظلم الإنسان لنفسـه وكفره بنعم الله تعالى ، ولو أراد الإنسان أن يحصى نعم الله عـز وجـل فلن يحصيهـا لأن الله غفـور رحيم ، والنعمـة ـ كما نعـرف ـ تقتضى ثـلاثة عناصر ، عنصر هـو المنعِم ، وعنصر هـو المنْعم عليه ، وعنصر هـو النّعْمة ،

ونعلم أنَّ «إنْ» حـرف شرط وتستعمل لـلأمـر المشكـوك فيـه ، وهى غير «إذا» التى تستعمل للشىء المحقق، وحين يقـول الله سبحـانـه وتعالى : «وإن تعـدوا نعمـة الله لا تحصوها» . فهذا شك فى أن يقبل أحـد على عدّ نعم الله ؛ لأن الذى يمكن أن يقبل على إحصاء عددى لأمـر ما ، هو من يظن أن هناك إمكـانة للإحصاء . ولـو حاول إنسان أن يحصى نعم الله تعالى لما استطـاع ؛ لذلك جـاء الحق هنا بـ «إنْ» فـالإنسان قـد يظن أنه قادر على إحصاء نعم الله لكن أحداً لن يستطيع ذلك .

ومن ناحية المنعِم ، هناك استدامة من المنعِم على المنعَم عليه ، ودليل ذلك أنه غفور ورحيم ولا يتخلى عن العاصين فيمنع عنهم النعم، فهـو الذى استدعاهم جميعـا إلى هذا الوجـود . فسبحانه منعم على الإنسان والإنسان ظلوم كفار، ولكنه سبحانه غفور رحيم.

والآن إلى خواطـرنا فى سورة التوبـة التى رأينا أن نستلهمها ممـا تقدم من التحليق فى آفاق «بسم الله الرحمن الرحيم» .

وسبحانه وتعـالى قد صنف فى سورة التوبة المشركين وأهل الكتـاب والمنافقين ، وقد قلنـــا إن المنـــافق تتعانـد ملـكاته فهو يعلن إيمانـاً ويبطن كفـراً ، ولذلك قـال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة]

وعندمـا تتعاند ملكـات الإنسان يكون محتقـراً بين الناس وبينه وبين نفسـه. ولقد اتفق جمهور الفقهاء على أن من أسماء التوبة «الفاضحة» لأنها فضحت المنافقين .

وقـد روى سعيد بن جبير قـال : سألت ابن عباس رضى الله عنـه عن سورة بـراءة فقال : تلك الفاضحة ، ومازال ينزل : ومنهم ومنهم حتى خفنا ألا تدع أحداً.

وهؤلاء المنافقون منهم من قال فى غزوة تبوك :

﴿ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ [التوبة : ٤٩]

ولقد قال القائل هذا القول طالباً الإذن بعدم الحرب متعللاً أن عيونه تلتفت للنساء ؛ ونساء الروم جميلات وهو يخشى على نفسه الفتنة ، فيرد الحق تبارك وتعالى على ذلك بقوله : ﴿ ألا في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩]

وكذلك منهم من كان يعيب على النبى صلى الله عليه وسلم فى توزيع الصدقات ، ويقول :إنه يحابى البعض ولا يعطى الآخرين ، فجاء قوله سبحانه وتعالى فى هذا الشأن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة : ٥٨]

ومنهم من ادعى على النبى صلى الله عليه وسلم أنه يعطى أذنه لأى إنسان ويحكم بما يسمع من طرف واحد ، ونسى أنه صلى الله عليه وسلم هو أذن خير، فاستمع بحق وكان لسان صدق فبلغ بحق ، لذلك جاء قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة : ٦١]

ومنهم ثعلبة الذى بخل بما أفاء الله تعالى عليه من خير وفضل وقد عاهد الله من قبل على البذل والعطاء مما يرزقه الله ويمنحه من فضل، فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) ﴾ [التوبة]

ومنهم من كان ينفق مرغماً فى سبيل الله :

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : ٩٨]

ومنهم من كان منافقا فنزل فيه قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : ١٠١]

وهكذا كشف الحق سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين كل أصناف الأعداء ، لذلك أطلق على هذه السورة بأنها «الفاضحة» لأنها فضحت كل العيوب ، ولم تفعل ذلك ليشمت الناس بعضهم فى بعض أو ليتشفى الخلق فيها أصاب غيرهم من كشف وفضح ، ولكنها جاءت كذلك ليسلم الصف الإيمانى من لبنات الضعف فى تكوينه، وتعزل الضعف الإيمانى من صفوف المسلمين ، ولا يبقى إلا الإيمان الحق . وقد سمى بعض العلماء هذه السورة «المقشقشة» لأنها تقشقش من النفاق أى تبرىء منه، وهذه السورة تزيح النفاق من أرض الإيمان. ومنهم من يسميها «المبعثرة»، والبعثرة لا تكون إلا فى شىء مُكَوَّم ،وعندما تأتى لِلْكُومة وتبعثرها يظهر الشىء المخبأ فى وسطها فهى تبعثر أسرار المنافقين. وسميت «الحافرة» لأن الإنسان حين يحفر الأرض يُخْرِج المخبأ فيها . وسميت كذلك بـ «المثيرة» لأنها تظهر ما خفى عن العيون، . وسميت «المدمدمة» و«المهلكة» لأنها أوضحت العقاب لكل مجرم ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ [الشمس : ١٤]

وسميت «سورة العذاب» . لأنها تكشف ما فى الصدور وأعطت لكل عدو للإسلام جزاءه . وكشفت الستارَ عن أعماقِ كل منافق .وعن حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هى سورة العذاب.

للسورة إذن أسماء متعددة ، ولكل اسم ملحظ، والحظ الوافر فى الأسماء للمنافقين : الفاضحة ، والمقشقشة ، والمبعثرة ، والمثيرة ، والحافرة ، والمدمدمة ، والمهلكة ، وكل ذلك فى كشف المنافقين . وتبدأ السورة بكلمة «براءة» واسمها سورة التوبة ، بينما البراءة قطع ، فكيف يستقيم الأمر ؟

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق الخلق وجعل الإنسان خليفة ، وهو رب الكل، ولذلك فلله عز وجل عطاءان : عطاء ربوبية ، بمعنى خلق كل شىء، وملكية كل شىء، والتكفل برزق كل الخلق ، وفى هذا يستوى المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، ومن يأخذ بالأسباب وإن كان كافراً أخذ من خير الربوبية ، وإن لم يأخذ المؤمن بالأسباب يظل متخلفاً ، هذا هو عطاء الربوبية ، أما عطاء الألوهية فهو فى

التكليف «افعل» و«لا تفعل» والتكاليف تختص بالعبادة .

إذن فالله رب الجميع لأنه هو الذى استدعاهم للوجود وضمن لهم مقومات الحياة .

والسورة تقول :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ ﴾

والبراءة ـ كما قلنا ـ هى انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

وهو أيضا يقول : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذى عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهى بقطع هذه المعاهدة . وكلمة «براءة» تجدها فى «الدَّيْن» ويقال: «برىءَ فلانٌ من الدَّيْن». أى أن الدَّيْنَ كان لازماً فى رقبته ، وحين سَدَّده وأَدَّاه يقال : «برىء من الدَّين» . ويُقال : «برىء فلان من المرض» إذا شُفِى منه أى أن المرض كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت فى العام الثامن من الهجرة ؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير «المكين» وهو الإنسان الذى يحيا بجانب البيت

الحرام، وكان لابد من تصفية تجعل المؤمنين فى جانب ، والكفار وأهل الكتاب والمنافقين فى جانب آخر، وقد حدث هذا فى العام التاسع من الهجرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحاب العهود التى كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهلاً للأمان ولا للوفاء بالعهود ؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويَغيب عنهم أشياء . لكن العالم الأعلى قال : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : ١]

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى، ومبلغة من الرسول الخاتم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمها قبيلة بكر متحالفة مع قريش . وقد أعانت قريش قبيلة بكر على قبيلة خزاعة ، فذهب إلى المدينة شاعر من خزاعة هو عمرو بن سالم الخزاعى وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يـارب إنّى ناشـدٌ مُحَمَّـدا •• حلف أبينا وأبيه الأتلَدا
كُنـت لنا أبـاً وكـنَّا ولـدا •• ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزع يـدا
فانصر هداك الله نَصْراً عتدا •• وادع عبـاد الله يأتوا مددَا
إن قريشاً أخلفُوك الموعـدا •• ونَقَضُـوا ميثاقَك المؤكَّدا
هم بيتـونا بالوتير هُجَّدا •• وقتلـونا ركَّعـاً وسُـجَّدا

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : نصرت يا عمرو بن سالم ، لانصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشركون هم الذين نقضوا العهد أولاً ، وصاروا لا يؤمن لهم جانب لأنهم

لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق فى الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتى خطاب من الله للمشركين ؟ . وقال بعض العلماء إنه مادامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لابد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا فى قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١) ﴾ [التوبة]

وخطابه للمقطوعين يتمثل فى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]

ومن سماحة هذا الدين الذى أنزله الحق تبارك وتعالى ؛ أن المولى سبحانه يعطى مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة : ٢]